﴿*وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾

[الأنعام: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اكتمالُ الحُجَّةِ العقليّةِ، بلَفْتِ النَّظَرِ إلى مُعجزةِ الزّمن

الآيةُ معطوفةٌ على قوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾، للّهِ ما في السّماواتِ والأرض، وله ما سكنَ، فهو داخلٌ تحت ﴿قُل﴾، وهو احتجاجٌ ثانٍ على المشركين، فلمّا استنارتِ الأدلَّةُ استنارةَ الشَّمسِ، وانتصبتِ البراهينُ حتَّى لم يبقَ أصلًا نَوعُ لبسٍ؛ عمَّ بالخبرِ عمّا تقدَّم ممّا يشاهدونه وغيره، فقال ذاكرًا الزَّمانَ بعد المكانِ، وقدَّمَهُ؛ لأنَّه أظهرُ، فتمَّ بذلك الخبرُ عن الزَّمان والزَّمانيّات والمكان والمكانيّات[1]، وبعد أن ذكرَ عظيمَ خلق اللّهِ في السّماواتِ والأرض، وهذا الفضاءُ العظيم، والكونُ الهائلُ؛ لَفَتَ الأنظارَ إلى الأزمنةِ، وذكرَ منها اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لتكتمل الحجَّةُ العقليَّةُ لدى المُخاطبين في أسلوبٍ علميٍّ نادرٍ صالحٍ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، فبيَّنَ أنَّ ذلك كلَّهُ ملكٌ للّهِ سبحانه، ولا أحد يستحقُّ أن يملك شيئًا منه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَكَنَ﴾: السُّكونُ: ذهابُ الحركةِ، سكنَ المتحرِّكُ، وأسكنتُهُ وسكنتُهُ، وتناسبت حركاتُهُ وسكناته[2]، وكلُّ ما هدأ: فقد سكنَ، كالرّيح والحرِّ والبرد والمطر[3]، وسكن، أي: سكتَ، وسكنَ الغضبُ[4]، فالسُّكونُ ثبوتُ الشَّيءِ بعد تحرُّكٍ[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/33.
(2) الزّمخشري، أساس البلاغة: (سكن).
(3) الخليل العين، وابن سيده، المحكم: (سكن).
(4) الخليل، العين: (سكن).
(5) الراغب، المفردات: (سكن).

قال القرطبيُّ: "المعنى: ما خَلَق، فهو عامٌّ في جميع المخلوقاتِ متحرِّكها وساكِنها، فإنَّه يجري عليه اللَّيلُ والنَّهار، وعلى هذا فليس المرادُ بالسُّكونِ ضدَّ الحركة، بل المرادُ الخلقُ، وهذا أحسنُ ما قيلَ؛ لأنَّهُ يجمعُ شَتات الأقوال"[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ ما يَشْهدُ بشُمولِ عِلْمِ اللهِ وإحاطتِه وقُدرتِه

ثمَّ أخبرَ اللّهُ سبحانه عن عمومِ ملكِهِ ﷻ، فهو مالكُ كلِّ شيءٍ وحركتِه وسكونِه وزمانِه، وهذا احتجاجٌ على المشركينَ؛ لأنَّهم لم ينكروا أنَّهُ خالقُ الكلِّ ومدبِّرهُ[2]، وهو تعالى يسمعُ كلَّ مسموعٍ وغيرَ مسموع، ويعلم كلَّ معلومٍ وغيرَ معلوم، فلا يخفى عليه شيءٌ سبحانه.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّه ﷻ يَمْلك النّاسَ وما حولهم لا يخرجون عن قدرتِه، وهو المهيمنُ عليهم، إن شاءَ خَسَف بمن يخالفُهُ، وأهلكهم، ولم يجعل من الكافرين ديّارًا، وأنه عليمٌ بما يكون من الطّائعين، فيجزيهم، ويهديهم، وما يكونُ من العصاةِ، فيعاقبُهم ويرديهم، وفيه إنذارٌ للمشركين[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ:

كلُّ موجودٍ هو للهِ وحدَه، ما تُدركُهُ حواسُّنا وما لا تُدرِكُهُ

العطفُ هنا من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ لتقرير عُمومِ الملك لله تعالى بأنَّ ملكَه شَمِلَ الظّاهراتِ والخفيّاتِ، فقوله: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على ﴿لِلَّهِۚ﴾[4]. من قوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: 12] الذي هو في تقديرِ الجملة، والمعنى: (لله ما في

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/191.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/493.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2451.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/155.

السَّماواتِ والأرضِ، ولهُ ما سكنَ)، فعطفَ الخاصَّ، وهو ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ على العام: وهو (لله ما في السماوات والأرض).

وجهُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المسنَدِ إليه:

كـلُّ شيءٍ في هذا الكونِ بإذنِ اللهِ، ولا حركةَ ولا سكونَ إلّا به

وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُۥ﴾ في قوله: ﴿*وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، للدَّلالة على الحَصر، فهي لله وحده سبحانه؛ لأنَّه هو الخالقُ المُقدِّرُ القيّوم على حركات اللَّيل والنَّهار وما يسكنُ فيهما، ثمَّ إنَّ اللَّيلَ أصلٌ والنَّهارَ طارئٌ، وهو حَصَرَ السّاكناتِ في كونِها له لا لغيرِه، أي: في كون أنَّ مُلكَها التّامَّ له، كما تقدَّمَ في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾، ومعنى ذلك أنَّ كلَّ شيءٍ له مسكنُهُ وبيئته ومحيطُه في هذا الكونِ، فهو مقهورٌ في محيطِهِ لا يملكُ التَّحوُّلَ عنه إلّا بإذنِ الله تعالى.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿سَكَنَ﴾ وسرُّ البدْءِ بهِ:

السَّكنُ شاملٌ لكلِّ موجوداتِ الدُّنيا

قوله: ﴿سَكَنَ﴾: فعل ماضٍ مِنَ السُّكنى، وتعدّيه بـ (في) كما في قوله: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [إبراهيم: 45][1]. وإلى ذلك ذهبَ ابن عطيَّةَ، فقال: هي من السُّكنى ونحوه، أي: ما ثبتَ، وتقرَّر[2]، وهذا المعنى يحقِّقُ فائدةَ أنَّ كلَّ مخلوقٍ له سُكنى في هذا الكونِ، وإنَّما بدأ به؛ لأنَّه صفةُ أكثر الموجوداتِ، كما أنَّ لفظَ ﴿سَكَنَ﴾ يحتملُ حملهُ على الكنايةِ، فالسُّكونُ استقرارُ الجسم في مكانٍ، أيّ: حيِّزٌ لا ينتقلُ عنه مدَّةً، فهو ضدُّ الحركةِ، وهو من أسبابِ الاختفاءِ؛ لأنَّ المختفيَ يسكنُ، ولا ينتشرُ، والأحسنُ أن يكون كنايةً عن الخفاءِ، مع إرادةِ المعنى الصَّريحِ، ووجهُ كونِه كنايةً أنَّ الكلامَ مسوقٌ للتَّذكيرِ بعلمِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكُم، وهو مُحاسبكُم عليها، يوم يجمعُكم إلى يومِ القيامة، فهو

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/320.

كقولهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ [الرعد: 8 - 10][1].

دلالةُ الظَّرفيّةِ الزّمانيَّةِ، في قولهِ تعالى: ﴿فِي﴾:

اللَّيلُ وعاءٌ للسُّكنَى، وآيةٌ على انتظامِ الزّمنِ وتعاقُبِه

فائدةُ تعديةِ السُّكنى بـ (في): أنَّ السُّكنى تكونُ في أيِّ وقتٍ من أوقات اللَّيل، وقد تستمرُّ تلك السُّكنى مع ذهابِ اللَّيلِ وطُلوعِ النَّهارِ، وهي على خلافِ دلالةِ قولِه: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾ [الرّعد: 10]؛ إذ إنَّ شرطَ الاستخفاءِ هو العتمَةُ، ووظيفةُ حرفِ الباءِ الإلصاق، ويكون الاستخفاءُ ملتصقًا باللَّيل وبعتمتِه، وتظهر دلالة الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ لـ (في) أنَّها للوِعاء، فصارَ اللَّيلُ وعاءً للسُّكنى، فقدَّم الأنموذجَ الّذي تستقرُّ فيه المخلوقاتُ، وتَسكُنُ.

سِرُّ البدْءِ بلفظِ (اللَّيلِ) قبلَ لفظِ (النّهار):

السَّواكنُ في اللَّيلِ تَزدادُ خفاءً

وتخصيصُ اللَّيلِ بالتّقديم في قوله تعالى: ﴿*وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾؛ لأنَّ السّاكنَ في ذلك الوقتِ يزدادُ خفاءً، فهو كقولِه: ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 59]، وعطفَ النَّهارَ عليه لقصدِ زيادَة الشُّمولِ؛ لأنَّ اللَّيلَ لمّا كان مظنَّةَ الاختفاءِ فيه، قد يظنُّ أنَّ العالمَ يقصدُ الاطِّلاعَ على السّاكنات فيه بأهمّيَّة، ولا يقصد إلى الاطلاعِ على السّاكناتِ في النَّهارِ، فذكر النَّهارَ لتَحقيقِ تَمامِ الإحاطَةِ بالمَعلوماتِ.

بلاغةُ تقديمِ المكانِ على الزَّمانِ في السِّياق:

المكانُ هو الحيِّزُ في الوجودِ، وهو يقابِلُ الزَّمانَ

لمّا ذكر - تعالى - أنَّهُ له مُلْك ما حوى المكان من السّماواتِ والأرضِ، في الآيةِ السّابقةِ بقوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أعقبهُ بذكرِ ما حواهُ الزَّمان من اللَّيل والنَّهار، بقوله: ﴿*وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، وإن كان كلُّ واحدٍ من الزَّمانِ والمكانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154 - 155.

يستلزمُ الآخرَ، لكنَّ النَّصَّ عليهما أبلغُ في توكيدِ الملكيَّةِ، وقدَّمَ المكانَ؛ لأنَّه أقربُ إلى العقولِ والأفكارِ من الزَّمان[1].

دلالةُ الطِّباقِ في لفظَي ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾:

اللَّيلُ والنَّهارُ يَشملانِ الأوقاتِ، ظَرفاً لحياةِ جميعِ المخلوقاتِ

معلومٌ أنَّ بين اللَّيل والنَّهارِ طباقًا فائدته الشُّمولُ، فاللَّيل والنَّهار يشملانِ الأوقاتِ كلَّها، فيكونُ كلُّ كائنٍ حيٍّ متحرِّكٍ لابدَّ له أن يسكُنَ في ساعةٍ من ساعات اللَّيلِ والنَّهار، كما أنَّ لها إشارةً مهمَّةً، مفادها: أنَّ جميعَ المخلوقاتِ لا بدَّ لها وأن تسكُنَ في اللَّيلِ أو النَّهار، من أصغر خليَّةٍ إلى أكبرِ مخلوقٍ، ثُمَّ فيها معنى الضَّعفِ لتلك المخلوقات الَّتي تحتاجُ إلى السُّكون، ولا يمكنها العيشُ أو استمرارُ حياتِها دون ذلك السُّكون، وقد عَرَّف اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لبيانِ أنَّهما ليلُ الأرضِ ونهارُها، وذلك بقرينةِ المخاطَبين بذلك، فهم أهلُ الأرضِ.

بلاغةُ الاكتفاءِ بـ ﴿سَكَنَ﴾، وحذْفِ المقدَّرِ في الآية:

السُّكُونُ صفةٌ للكائناتِ، يأتي بعدَ الحركةِ في الموجوداتِ

اكتفى بذكرِ السُّكونِ دونَ الحركةِ، إذا قَصَدَ معنى السُّكونِ، وليس السُّكنَى، فاكتفى بأحدِ الضِّدَّينِ عن الآخر[2]؛ لأنَّ الأجسامَ والمخلوقاتِ منها ساكنٌ ومنها متحرِّكٌ، فما هو ساكنٌ مُرادٌ بذاتِه وما يتحرَّك لابدَّ له من السُّكونِ، والمعنى: (ما سكن وما تحرَّك)[3] لمعطوفٍ محذوفٍ، وقيلَ: لا محذوفَ هنا، واقتصرَ على السّاكنِ؛ لأنَّ كلَّ متحرِّكٍ قد يسكنُ، وليس كلُّ ما يسكن، يتحرَّكُ[4].

قال أبو زهرة: "لا مانعَ من أن يُرادَ المعنيان معًا، إذ يعلمُ سبحانه كلَّ ما استقرَّ في السّماوات والأرض، ويعلمُ حركاتِهما وسكناتِهما"[5].

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/449.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156.
(3) ابن معصوم، أنوار الرّبيع: 1/183.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/449.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2451.

بلاغةُ خَتْمِ الآيةِ بما يُناسبُ الوعيدَ والتَّهديدَ:

العلمُ بقُدرةِ اللهِ المُخصِّصةِ والمُجازيةِ، أقوَى رادعٍ

قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، منها قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكلِّ مسموعٍ، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكلِّ معلومٍ، فلا يخفى عليه شيءٌ، ويجوز أن يكونَ وعيدًا للمشركين على أقوالِهم وأفعالِهم[1]، وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لما تقدَّم ذكرُ محاوراتِ الكفّارِ المكذِّبين، وذكرُ الحشرِ الَّذي فيه الجزاء؛ ناسبَ ذكرُ صفةِ السَّمع لما وقعت فيه المحاورةُ وصفة العلم لتضمُّنها معنى الجزاءِ؛ إذ ذلك يدلُّ على الوعيدِ والتَّهديد[2].

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشْرِ في الآيةِ الكريمةِ:

مغزَى ذكْرِ اللَّيلِ والسَّمعِ، وذكْرِ النَّهارِ والعِلمِ

قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، كان به خَتْمُ الآيةِ الكريمةِ كالنَّتيجةِ للمقدِّمة؛ لأنَّ المقصودَ من الإخبارِ بأنَّ اللهَ يملك السّاكناتِ، هو التَّمهيدُ لإثباتِ عمومِ علمِه، وإلّا فإنَّ مُلكَ المُتحرِّكات المُتصرِّفات أقوى من مُلكِ السّاكِنات الَّتي لا تُبْدي حَراكًا، فظهرَ حسنُ وقعِ قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ عقبَ هذا[3]. وفي الآيةِ لفٌّ ونشرٌ على التَّرتيبِ؛ إذ ذكرَ اللَّيلَ، وذكَرَ السَّمْعَ باعتبارِها الحاسَّة التّي تعملُ في الظَّلام، وذكرَ النَّهارَ والعِلم؛ إذ يكونُ في النَّهارِ نشاطُ المخلوقاتِ في الحَرَكة واكتِساب العِلمِ والخِبرَة والمَعرفة.

دلالةُ وجهَيِ السَّمْعِ في الآيةِ الكريمةِ:

اللهُ سميعٌ لا يَغيبُ عنه بالفَوْتِ، أدْنَى صَوتٍ.

من أسماءِ اللهِ وصفاتِه "السميعُ"، وسمْعُ اللهِ تعالى قسمان: سمعُ إجابةٍ، وسمْعُ صوتٍ، فسمعُ الإجابةِ مثلُ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/449.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/156.

وسمْعُ الصَّوتِ أقسامٌ وأنواعٌ، النَّوعُ الأوَّلُ: المقصودُ بهِ التَّأييدُ والنَّصرُ، كقولِ اللهِ ﷻ لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: 46]. والثاني: المرادُ بهِ التهديدُ، كقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ﴾ [الزخرف: 80]. والثالثُ: المرادُ به الإحاطة، كقول الله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: 1][1].

وجهُ المُبالَغَةِ في صِفتَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

أفادَ تعريفُ الاسمينِ (السَّميعُ العَليمُ) المُبالغَةُ في معناهُما، فهو سبحانهُ يسمعُ ما تسمعَهُ المَخلوقاتُ، وما لا تَسمَعُهُ، ويَعلَمُ ما تعلمُ وتُدرك المخلوقاتُ، وما لا تَعلَمُ أو تُدركُ، وجاءت صفتا (السَّميع) و(العَليم) كصِفَتَي مُبالغَةٍ لدلالَتِهما على ذلك.

اللـهُ سُبحانه سميعٌ لا يُـدرَكُ سمعُهُ، وعليمٌ لا نهايةَ لعلْمه

(1) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، تفسير سورة الأنعام، ص: 73.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»